موارد المياه في إفريقية
من خلال رحلة التجاني في القرن
الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي

د/ عبد الحليم علي رمضان دويم
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
كلية الآداب–جامعة المنصورة

ملخص البحث:

شكّل الرحالة المغاربة برحلاتهم مصدرًا مهمًّا من مصادر التاريخ للبلدان التي زاروها ومروا بها في رحلاتهم، ومن هذه الرحلات المهمة – رحلة التجاني – التي تعد مصدرًا مهمًّا للحديث عن موارد المياه في إفريقية في تلك الفترة، حيث سجل التجاني مشاهداته عن كل مكان نزل فيه أثناء الرحلة ؛ فيما بين تونس وطرابلس فتناول: الاسم والموقع ومورد الماء فيه، ونبذة عن تاريخه وعاداته وتقاليده وثقافته.

ويتبين لنا من خلال قراءة رحلة التجاني، أن الهاجس الذي كان يدندن حوله هو الماء، حيث كان يكثر من التحدث عنه ووصف أماكنه ومسمياته، حتى غدا شغله الشاغل، وهذا أمر طبيعي كون المسافر في البيداء أكثر ما يفكر فيه ويخشاه هو فقد الماء، فالماء في كل الأحوال هو الحياة.

أهمية الموضوع: كان اختيار الباحث لموضوع المياه في بلاد إفريقية؛ وذلك لاهتمام التجاني بموضوع الماء في رحلته، حيث أعطى التجاني الماء اهتمامًا خاصًّا؛ فيصف لنا موارد المياه في بلاد إفريقية؛ بداية من تونس وانتهاء بطرابلس، وكذا كيفية الاستفادة من تلك الموارد، وبعض القضايا المتعلقة بتوزيع المياه في بلاد إفريقية.

وقد تناولت الدراسة في بدايتها التعريف بالتجاني: صاحب الرحلة، ثم تناولت موارد المياه وصفًا وتحليلاً، كما شاهدها التجاني، فتحدثت عن مياه الأنهار والأمطار، ثم مياه الآبار والعيون، ثم موارد المياه المستحدثة، ثم تناولت المنشآت الخاصة بالمياه، وكيفية توزيع المياه واستغلالها وأثر ذلك على النشاط الاقتصادي والاجتماعي في إفريقية، ثم بعض القضايا المتعلقة بتوزيع المياه ودور الدولة في ذلك.

Water resources in Africa through El Tijani's journey .The eighth century AH / fourteenth century A.D

The trips of Moroccan constitute a significant source of history of the countries they visited and tour through these journeys. Among these significant trips Al–Tijani trip – which is an important source for information on water resources in Africa during that period– 8th century H. Al–Tijani recorded his observations about every place he visited during his trip Between Tunis and Tripoli; this includes name, locations, and water resource therein; moreover, he wrote also a summary of their history, customs, traditions and culture

Al–Tijani trip revealed that he was clearly interested in water resources, as he frequently talk about them and describe their places and names, even it turned to be his main object. This seems to be normal as any traveler in the desert would be obsessed mainly of water and fear all time of water shortage or loss, as water is life simply.

The importance of the topic: the choice of the topic of water in African countries was due to Al–Tijani's interest of the issue of water in his journey, where Al–Tijani paid special attention to water resources. He describes in details water resources in African countries, beginning by Tunisia and ending in Tripoli, as well as how to benefit from these resources and some issues related to water distribution in African countries

In the beginning, the paper dealt with the biography of Al–Tijani, the traveler and writer, and then discussed water resources, as witnessed by Al–Tijani. Moerover, it questions the economic and social activities in Ifriqiya, and some other issues related to water distribution and the state's role in this

إن دراسة موضوع موارد المياه في إفريقية جزأ لا يتجزأ من حاضر إقليم بلاد المغرب الأدنى، حيث يعتمد سكان هذا الإقليم على مياه الأمطار، ويرتبط ذلك بالتقلبات المناخية، وكيفية تعظيم الاستفادة من مصادر المياه.

شكّل الرحالة المغاربة برحلاتهم مصدرًا مهمًّا من مصادر التاريخ للبلدان التي زاروها ومروا بها في رحلاتهم، ومن هذه الرحلات المهمة – رحلة التجاني – التي تعد مصدرًا مهمًّا للحديث عن موارد المياه في إفريقية في تلك الفترة، حيث سجل التجاني مشاهداته عن كل مكان نزل فيه أثناء الرحلة؛ فيما بين تونس وطرابلس فتناول: الاسم والموقع ومورد الماء فيه، ونبذة عن تاريخه وعاداته وتقاليده وثقافته .

ويتبين لنا من خلال قراءة رحلة التجاني، أن الهاجس الذي كان يدندن حوله هو الماء، حيث كان يكثر من التحدث عنه ووصف أماكنه ومسمياته، حتى غدا شغله الشاغل، وهذا أمر طبيعي كون المسافر في البيداء أكثر ما يفكر فيه ويخشاه هو فقد الماء، فالماء في كل الأحوال هو الحياة، ولكن تتجلى هذه الحقيقة أكثر في حال السفر، حيث يبتعد المرء عن مواطن المياه والتجمعات البشرية، ويصبح أسير الصحراء التي لا يعرف مصيره فيها، فالسفر قطعة من العذاب، وفقد الماء في مثل هذا الموطن يعني الموت المحتم، وتتحول مصادر المياه الطبيعية من الأمطار، والأنهار، والعيون، والبحيرات إلى طوق النجاة، والرحمة التي لا يستغني عنها العبد في مثل هذه المواطن أو غيرها، ولكنها تتجلى في حالة السفر على صورة التمام.

أهمية الموضوع: كان اختيار الباحث لموضوع المياه في بلاد إفريقية؛ وذلك لاهتمام التجاني بموضوع الماء في رحلته، حيث أعطى التجاني الماء اهتمامًا خاصًّا؛ فيصف لنا موارد المياه في بلاد إفريقية؛ بداية من تونس وانتهاء بطرابلس، وكذا كيفية الاستفادة من تلك الموارد، وبعض القضايا المتعلقة بتوزيع المياه في بلاد إفريقية .

وقد تناولت الدراسة في بدايتها التعريف بالتجاني: صاحب الرحلة، ثم تناولت بعد ذلك موارد المياه وصفًا وتحليلاً، كما شاهدها التجاني، فتحدث عن مياه الأنهار والأمطار، ثم مياه الآبار والعيون، ثم موارد المياه المستحدثة، وأثر تلك الموارد على النشاط الاقتصادي للسكان، و بعض العادات الاجتماعية في إفريقية، ثم تناولت المنشآت الخاصة بالمياه، وكيفية توزيع المياه واستغلالها.

يعد الماء هو العنصر الأساسي في قيام الحضارات وازدهارها، لذلك رأينا أهم الحضارات الإنسانية قامت حول مجاري الأنهار الكبرى، حيث إن أهمية الماء في حياة الإنسان جعلته، يؤسس كيانه الحضاري والثقافي في بعض الأحيان حول مصادر المياه ومجاريها وامتدادها [١].

التعريف بالتجاني ورحلته: هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن أبي القاسم التجاني، نسبة إلى قبيلة تجان، التي نزحت من المغرب الأقصى إلى تونس في عهد الدولة الحفصية، حيث ولد عبدالله التجاني ما بين سنتي (٦٧٠- ٦٧٥هـ/١٢٧٢-١٢٧٦م)[٢]. ونشأ بتونس، وتلقى تعليمه فيها على يد أبيه، الذي كان يعمل كاتبًا عند السلطان الحفصي أبي حفص عمر بن

---

[١] سراج أحمد: حول استمرار أحد مظاهر الديانات المائية القديمة بمغرب العصر الوسيط، ضمن كتاب (الماء في تاريخ المغرب) منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم (١١)، مطبعة المعارف الجديدة–الرباط، ١٩٩٩م، ص١٥٧.

[٢] عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت ،لبنان، ١٩٥٧، ج ٦، ص٣٩.

أبى زكريا (٦٨٣-٦٩٤هـ/١٢٨٤-١٢٩٤م)، سلطان الدولة الحفصية [١]، وفي سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٤م انقسمت الدولة الحفصية إلى قسمين؛ قسم شرقي: يضم الأجزاء الشرقية من أراضيها، عاصمته تونس[٢]، عليه السلطان أبو حفص عمر بن أبى زكريا ، وقسم غربي: يضم الأجزاء الغربية من أراضي الدولة وعاصمته بجاية عليه السلطان أبو زكرياء يحي بن أبي إسحاق[٣].

---

(١) الدولة الحفصية أقامها بنو حفص ، وهم أحد البطون التي تنسب إلى الشيخ أبى حفص عمر بن يحيى الهنتانى، نشأت دولتهم عندما أعلن أبو زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص استقلاله عن الموحدين، وكان واليًا على إفريقية سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨م، ولقب بأمير المؤمنين، ويعتبر مؤسس الدولة الحفصية وقد استمرت الدولة الحفصية في حكم إفريقية حتى سنة ٩٨١هـ/ ١٥٧٤م للمزيد عنها انظر:(ابن القنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية – تحقيق محمد الشاذلى النيفر، وعبد المجيد التركي، تونس، ١٩٦٨م، ص١٠٤-١٠٦؛ الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية – تحقيق محمد ماضور، تونس، ط ٢ ،١٩٦٦م.، ص ٢٥-٣٠؛ روبار برنشفيك :تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣- ١٥ م- ترجمة حمادي الساحلي، بيروت ، ١٩٨٨م،جـ١، ص ٤٢-٤٦.

(٢) **تونس:** ذكر القزويني أن تونس مدينة كبيرة بأرض المغرب تقع على ساحل البحر، وهي قصبة بلاد إفريقية، وهى "أصلح بلادها هواء وأطيبها ماء وأكثرها خيرًا وبها من الثمار والفواكه ما لا يوجد في غيرها من بلاد المغرب حسنًا وطعماً " القزويني، زكريا بن محمد بن محمود: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر– بيروت، (د.ت)، ص١٧٣؛ عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ، ج١، ص٢٨٢.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحاتة، بيروت، ٢٠٠٠م ، ج٦ ، ص ٧٠٠.

ثم توفي السلطان الحفصي أبو حفص عمر في سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٥م، فتولى من بعده أحد أبناء السلطان المستنصر، وهو السلطان أبو عبد الله محمد الواثق(٦٩٤-٧٠٩هـ/١٢٩٥-١٣٠٩م) [١] الملقب بأبي عصيدة [٢]. وكان على الأجزاء الغربية في بجاية الأمير أبو البقاء خالد بن أبى زكريا يحيى بن أبي إسحق (٦٩٩-٧١١هـ/١٢٩٩-١٣١١م)، الذي كان قد نجح بمساعدة بعض القبائل العربية في الاستيلاء على بجاية وقسنطينة، ووقع اتفاقًا بين أبي البقاء خالد وأبو عبد الله محمد الواثق على أنه إذا توفي أحدهما قبل الآخر ورث الآخر أملاكه وأضحى سلطان الدولة الحفصية بقسميها الشرقي والغربي [٣] .وبعد وفاة السلطان الواثق عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، توجه أبو البقاء إلى تونس حسب الاتفاق الذى كان قد عقده سلفًا مع السلطان أبي عصيدة؛ إلا إنه وجد الحفصيين في تونس قد بايعوا أميرًا حفصيًّا آخر، وفي تلك الأجواء، وصل طرابلس أحد أمراء البيت الحفصي يدعى أبو يحيى زكريا اللحياني ، الذي كان في رحلة إلى المشرق، واستغل اضطراب الأمور في السلطنة الحفصية، وأمام تفاقم الأوضاع تنازل أبو البقاء خالد عن حكم الدولة الحفصية لأبى يحيى زكريا اللحياني في عام ٧١١هـ/١٣١١م[٤]، وقد التحق التجاني بديوان الإنشاء بالبلاط الحفصي في عهد السلطان الواثق أبي عصيدة، ومن بعده

---

[١] أبو عبدالله محمد بن أحمد الشماع: الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم : الطاهر بن محمد المعموري ، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤، ص ٨٣.

[٢] يعود لقب أبي عصيدة إلى حادثة وقعت يوم ميلاد الواثق فيذكر ابن الشماع أنه: " لما قتل السلطان أبو زكريا يحيى الواثق بن السلطان الحفصي المستنصر، كانت إحدى جواريه حامل به ، ففرت إلى رباط الشيخ المرجاني، = وأنجبته هناك، فسماه الشيخ المرجاني عبد الله ، وأطعم من فرحته به الناس عصيدة الحنطة فأسماه الناس أبو عصيدة. انظر: ابن الشماع : الأدلة البينة ، ص ٨٣.

[٣] ابن الشماع : الأدلة البينة ، ص ٨٣ ؛ الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص ٦٢.

[٤] ابن الشماع : المصدر السابق ، ص ٨٣ ؛ الزركشي: المصدر السابق ، ص ٥٨ .

السلطان أبي يحيى زكريا اللحياني (٧١١-٧١٨هـ/١٣١١-١٣١٨م)، فاصطفاه لنفسه وجعله من خاصته، وأصبح كاتبه الخاص ورئيس ديوان رسائله[١] المعروف بخطة العلامة الكبرى(٢).وعلاوة على توليه الكتابة والإنشاء له مؤلفات نثرية منها "الدرر النظيم ونفحات النسرين في مخاطبة ابن شبرين" [٣]، ومنها "تحفة العروس ونزهة النفوس" [٤]، وغيرها من المؤلفات، وتعد "رحلة التجاني" من أهم مؤلفاته وأكثرها شهرة لما تحتويه من مادة جغرافية وتاريخية وأدبية.

---

(١) الزركشي : نفسه، ص ٦٢-٦٣ .

(٢) تعتبر وظيفة صاحب العلامة من المناصب المرموقة في الدولة الحفصية في إفريقية، حيث كان صاحب خطة الكتابة من المقربين للسلطان الحفصي، وكان كاتب السر يقابل السلطان كل يوم، ليعرض عليه الرسائل المختلفة، ورسائل أصحاب المظالم . وقد ورد ذكر صاحب خطة الكتابة والإنشاء بصيغ مختلفة في بلاد المغرب فمنها صاحب القلم الأعلى و الفقيه الكاتب. انظر: ابن الأحمر: مستودع العلامة ، ص ٢٠؛ ومنها وظيفة شيخ الكتاب انظر: ابن مرزوق: المسند الصحيح ، ص ٢٩؛ ومنها وظيفة رئيس الكتاب انظر: ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص ٤٠، ٧٠؛ ومنها كاتب السر أو كاتب السر والإنشاء، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، جـ ٥، ص ٢٠٥ – ٢٠٦.

(٣) كانت هذه الكتابات عبارة عن مراسلات بين أبي محمد عبد الله التجانى وبين أبي بكر محمد بن شبرين السبتي (ت ٧٠٥هـ/١٣٠٥م) المقيم في مدينة غرناطة. انظر: أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد التجاني : رحلة التجاني، تقديم: حسن حسني عبدالوهاب، تونس، ١٩٥٨م ص ١٦٤؛ محمد النيفر: عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٢٩١ .

(٤) التجاني: المصدر السابق ، ص ١٩-٤٦.

ويثني العلامة حسن حسني عبدالوهاب محقق الرحلة على التِّجاني، ويضعه في مرتبة الرحالة الرواد، فيقول: "إن الرحلة من غرر المصنفات التونسية، وكأنها الوحيدة من نوعها في وصف البلاد الأفريقية في القرن الثامن الهجري"(١).

لازم التجاني الأمير أبا زكريا اللحياني؛ باعتباره كاتب رسائله، وقد اصطحبه هذا الأمير معه عندما توجه نحو جربة لاستردادها من النصارى الأسبان(٢)، وكان في نيته التوجه بعدها نحو المشرق لأداء فريضة الحج، وهذا ما ذكره التجاني في رحلته فيقول: " فكان خروجي من تونس صحبة الركاب العلي المخدومي أعلى الله مقامه، وأطال في العز دوامه في آخر جمادى الأولى من عام ستة وسبعمائة ، وكان مراده منها والقصد الأول إنما هو التوجه لأداء فريضة الإسلام (الحج)" (٣)، ولم يوفق الأمير في استعادة جربة بعد محاولات نحو شهرين، ثم توجه مع الأمير أبي زكريا نحو طرابلس، فمكثوا فيها ثمانية عشر شهرًا، ولم يكد الركب يصل عين ودرس حتى أصيب التجاني بمرض أقعده الفراش وحال دون استطاعته امتطاء فرسه في محرم ٧٠٩هـ/يونيو ١٣٠٩م؛ مما اضطره للعودة إلى تونس(٤) .بعد عودة التجاني إلى تونس ظل يمارس خطة الكتابة بديوان الانشاء للسلطان أبي زكريا يحي وظل بها إلى أن استولى أمير بجاية يحي بن أبي بكر على تونس ٧١٨هـ/١٣١٨م(٥)، واختفى أي أثر بعد ذلك للتجاني الذي لم يعرف أي شيء عن نهايته، وأشار الزركشي إلى ذلك بقوله: " إن اسم التجاني ذهب بارتحال الدولة إلى أبي بكر ..." (٦)

---

(١) التجاني: نفسه ، مقدمة المحقق، ص ٤١.

(٢) Mas.Latre , Relations Des Chretens , Des Chiretiens Avec les Arabes De l'a Frique se Ptentrionale , Paris , 1866 , P62 .

(٣) نفسه، ص ٤ .

(٤) التجاني : رحلة التجاني، ص ٣١٦ –٣١٧ .

(٥) ابن الشماع : الأدلة البينة، ص ٨٧. الزركشي: تاريخ الدولتين، ص٦٤ .

(٦) الزركشي : المصدر السابق ، ص٦٥ .

حالة المناخ ومصادر المياه في إفريقية:

إن دراسة البيئة الجغرافية من موقع وتضاريس ومناخ يعد مدخلًا ضروريًّا لمعرفة النشاط الاقتصادي؛ لأن العملية الاقتصادية هي تفاعل الإنسان مع بيئته ودرجة سيطرته عليها بالزراعة والصناعة واستنباط المياه، واستثمار فائضها بالتجارة، وهي التي تحدد حال اقتصاه غنيًّا كان أم فقيرًا [١]، ويقع إقليم إفريقية[٢] في الشمال الغربي لقارة أفريقيا، فيحده شمالاً البحر المتوسط، وبلاد المغرب الأوسط في الجنوب الغربي وإقليم برقة شرقًا وفزان والصحراء الكبرى في الجنوب[٣]، وتعد الزراعة وتربية الحيوان هما الحرفتان الرئيستان لسكان إقليم إفريقية[٤]. وعندما نتحدث عن الواحات تنطبع في الذهن صورًا لجزر خضراء متناثرة، تمتد أحياناً لمسافات طويلة وسط مجالات صحراوية وشبه صحراوية، لا تخلو من زوابع رملية[٥]، ومن حرارة مفرطة صيفاً، وقساوة برد شتاءً، مع تساقط الأمطار بصورة شحيحة؛ ولكي يأخذ الدارس نظرة حول أهمية الماء في هذه

---

[١] عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣، ص ٣٥ .

[٢] **مصطلح إقليم إفريقية:** الذي تداولته المصادر العربية في العصور الوسطى يطلق على البلاد التونسية والطرابلسية، وأكد ابن حوقل على ذلك قائلاً:" فأما طرابلس، فكانت قديماً من عمل إفريقية "، وتضم بلاد إفريقية أيضًا منطقة بجاية وقسطنطينة في الجهة الغربية أو ما يطلق عليه اسم " إقليم المغرب الأدنى"، وأحيانًا أخرى "بلاد البربر الشرقية" انظر: ابن حوقل: صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت،د.ت، ص ٧١؛ برنشيفك: تاريخ إفريقية، ج١، ص٢٩.

[٣] حسن حسني عبدالوهاب : خلاصة تاريخ تونس، دار الجنوب للنشر، تونس ٢٠٠١، ص ١١.

[٤] الجمل، شوقي عطا الله، وإبراهيم، عبدالله عبدالرزاق: مشاكل المياه في أفريقيا، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠١٣م، ص١١.

[٥] الزوابع: جمع زوبعة، وهي الإعصار. انظر: مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ج١، ص٣٨٨.

المجالات الصحراوية؛ يكفي الاطلاع على ما هو مدون في كتب الرحلات الحجية المغربية والأندلسية، ليقف على معاناة الحجاج من قساوة البرد وندرة الماء[١].

وقد شهدت إفريقية فتن وقلاقل داخلية أثرت على الحياة الاقتصادية فيها قبل فترة الدراسة [٢] إن كتب الرحلة تتضمن مادة مهمة يمكن أن توضح معالم الخريطة المائية في بلاد المغرب الإسلامي، من خلال وصف الرحالة للموارد المائية المختلفة وتحديدهم لأماكن وجودها [٣].

أولاً: مصادر المياه الطبيعية: (الأمطار– الأنهار – العيون – البحيرات والغدران).

أولاً : مياه الأمطار: وصف التجاني في رحلته المهمة كثيراً من المعالم المائية في بلاد إفريقية، ففي يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول سنة (٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م)، حل بمنزل زنزور[٤]، ووصفها بأنها غابة متسعة الأقطار ملتفة الأشجار، وتوجد فيها مياه عذبة، وأكثر شجرها من الزيتون[٥]، كما يوجد بها سوق يأتي إليه السكان البربر من كل مكان لبيع منتجاتهم[٦]

---

[١] مزيان، أحمد: استغلال الماء في الواحات – نموذج فجيج (فكيك)، مدرج في كتاب (الماء في تاريخ المغرب)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم (١١)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٩م، ص١١٧.

[٢] التجاني : الرحلة، ص١٦، ٦٥–٦٨.

[٣] عليوش: الثروة المائية في ريف المغرب الأوسط: خريطتها، منشآتها، استغلالها – رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم التاريخ بكلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية – جامعة قسنطينة (الجزائر)، ٢٠١٣م، ص٧.

[٤] **زنزور**: بلد غربي مدينة طرابلس بنحو ١٢ كم وهي بزاي مفتوحة ونون ساكنة، بعدها زاي مضمومة وواو وراء . قال صاحب الرحلة الناصرية : وعلى باب البلد قبر رجل من الصالحين يعرف بالعريفي.

[٥] التجاني: رحلة التجاني، ص٢١٤.

[٦] التجاني: نفسه ص٢١٥–٢١٦.

،ووصف جزيرة شريك[١] التي تنسب إلى شريك والي مصر من قبل الوليد بن عبدالملك، فذكر أن هذه الجزيرة لم تزل معروفة بالخصب والبركة، وذكر أنها: طيبة مباركة ذات دور متصلة، وبركات وخيرات، ومياه وغلات، وفيها خصب زائد عن غيرها من الأراضي[٢]، كما وصف التجاني شتاء تونس بالغزارة لدرجة أنه أهلك اثني عشر ألفاً من أهل جزيرة باشو[٣] بالقرب من تونس هلكوا بالبرد والماء[٤]، ووصف قصور المباركة في بلاد المغرب بأنها عامرة وأن أهلها موصوفون بالبخل، وقد تأكد من ذلك حين شاهد منعهم للماء مما يصدق ما اشتهروا به من ذلك[٥]، وتحدث عن قريتين تابعتين لزوارة الكبرى، وذكر أنهما قريتان متشابهتان في عذوبة الماء وخراب البنيان، وولول هي منتهي أرض زوارة[٦].

---

(١) **جزيرة شريك:** كورة بإفريقية بين سوسة وتونس، تنسب إلى شريك العبسي، وكان عاملًا فيها، وقصبة هذه الكورة بلدة يقال لها باشّو، وهي مدينة كبيرة آهلة، بها جامع وحمّامات وثلاث رحاب وأسواق عامرة، وبها حصن أحمد بن عيسى القائم على ابن الأغلب وبجزيرة شريك اجتمعت الروم بعد دخول عبد الله بن سعد بن أبي السرح المغرب وساروا منها إلى مدينة إقليبية وما حولها ثم ركبوا منها إلى جزيرة قوسرة ومن تونس إلى منزل باشو مرحلة، بينهما قرى كثيرة جليلة ثم من باشو إلى قرية الدواميس مرحلة، وهي قرية كبيرة آهلة كثيرة الزيتون، وبينهما قصر الزيت ومن قرية الدواميس إلى القيروان مرحلة، بينهما قرى كثيرة وبحذاء جزيرة شريك في البرّ نحو جهة الجنوب جبل زغوان. الحموي: معجم البلدان: ج٢، ص١٣٧.

(٢) التجاني: رحلة التجاني، ص١١.

(٣) **بَاشُّو**: مدينة تعرف بمنزل باشو واسعة العمل خصيبة حصينة، ومنها إلى القيروان مرحلة. الحموي: معجم البلدان: ج١، ص٣٢٤.

(٤) التجاني: المصدر السابق، ص١٤.

(٥) المصدر نفسه، ص٨٥.

(٦) المصدر نفسه، ص٢١٠.

ووصف موردًا للمياه يسمى (خنافس)، وارتحل منه، فانتهي إلى مورد آخر يسمى (نبش الذئب) فلم يجد فيه ماء، ولم يحتج إليه؛ لأنه كان قد احتمل معه من الماء ما كفاه عنه، ووجد على هذا المورد ركبًا صغيرًا قد وصل إليه قبل وصوله بأيام يسيرة، فلم يجدوا فيه ماء فهلكوا هناك جميعًا، وهذا التذبذب في مياه الأمطار كان له آثار سيئة على الحياة الاقتصادية في المنطقة[١].

وهذا يدل على أن المياه كانت قليلة في إفريقية، وليست متوفرة في كل الأماكن، وأن بعض موارد المياه قد تنضب وتغور المياه فيها، فتتحول إلى خراب بعد أن كانت عامرة. ويصف ابن بطوطة أمطار مدينة قابس(٢) بالغزارة حتى إنه اضطر أن يبقى فيها عشرة أيام؛ بسبب توالي هطول الأمطار بصورة مستمرة، حيث ذكر أنه وصل إلى مدينة قابس ونزل بداخلها، وأقام بها عشراً لتوالي نزول الأمطار(٣).

---

(١) التجاني: الرحلة، ص٣١٩؛ برنشفيك: تاريخ إفريقية، ج٢، ص٢١٤.

(٢) **قابس**: وتقع مدينة قابس جنوب مدينة صفاقس بينها وبين طرابلس، وهي مدينة بحرية صحراوية، فإن الصحراء متصلة بها، والبحر على ثلاثة أميال منها ، للمزيد عنها انظر: القطيعي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ج٣، ص ١٠٥٤؛ دحروج، إلهام حسين: مدينة قابس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية (حوالي ٤٤٢-٦٦٥هـ/١٠٥١-١٢٤٧م)، رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة القاهرة – كلية الآداب، الدراسات العليا، قسم التاريخ، عام ٢٠٠٠م، ص٣.

(٣) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ. ، ج١، ص١٧٠. وفيه: "قال ابن جزي في ذكر قابس: يقول بعضهم:

لهفي على طيب ليال خلت ..... بجانب البطحاء من قابس

كأن قلبي عند تذكارها ..... جذوة نار بيد القابس".

كما أنه اضطر للتوقف والإقامة في مدينة طرابلس[١] أكثر من المدة المقررة بسبب الخوف من البرد والمطر، مما يشير إلى: أن المطر كان يهطل بغزارة، وربما كان مصحوباً بالبَرَد الذي يتساقط مثل الحجارة على رؤوس الناس، وهناك آثار اقتصادية ضارة على السكان نتيجة تساقط هذا البرد منها: هلاك المحاصيل والحيوانات وغير ذلك.

وكان الناس في إقليم إفريقية يعتمدون على مياه الأمطار في الشرب؛ لأن موارد المياه الأخرى من الممكن أن تكون مالحة أو غير صالحة للشرب، وهذا ما أشار إليه التجاني عندما تحدث عن مدينة صفاقس[٢]، حيث ذكر أن ماءها شراب لا يساغ، وإنما يعتمدون في شربهم

---

[١] **طرابلس:** مدينة في المغرب الإسلامي تعد حالياً عاصمة دولة ليبيا، ذكر الحموي في (معجم البلدان) أن أشباروس قيصر أول من بناها، وعلى مدينة طرابلس سور صخر جليل البنيان، وهي على شاطئ البحر، ومبنى جامعها أحسن مبنى، وبها أسواق حافلة جامعة وبها مسجد يعرف بمسجد الشعاب مقصود وحولها أنباط، وفي بربرها من كلامه بالنبطية، وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون أعمرها وأشهرها مسجد الشعاب، ومرساها مأمون من أكثر الرياح، = وهي كثيرة الثمار والخيرات، ولها بساتين جليلة في شرقيها وتتصل بالمدينة سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير، وأعذب آبارها بئر القبّة، وكان عمرو ابن العاص نزل على مدينة طرابلس في سنة ٢٣ من الهجرة فملكها عنوة واستولى على ما فيها. الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢٥.

[٢] **صفاقس أو سفاقس:** مدينة من نواحي إفريقية جلّ غلاتها الزيتون، وهي على ضفة الساحل، بينها وبين المهدية ثلاثة أيّام وبين سوسة يومان وبين قابس ثلاثة أيّام، وهي على البحر ذات سور، وبها أسواق كثيرة ومساجد وجامع، وسورها صخر وآجرّ، وفيها حمامات وفنادق وقرايا كثيرة وقصور جمّة، ورباطات على البحر ومنائر يرقى إليها في مائة وستين درجة في محرس يقال له بطريّة، وهي في وسط غابة الزيتون، ومن زيتها يمتار أكثر أهل المغرب، وكان يحمل إلى مصر وصقلية والروم ويكون فيها رخيصا جدًّا، يقصدها التجار من الآفاق بالأموال لابتياع الزيت، وعمل أهلها القصارة والكمادة. الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٢٢٣.

على ما يدخرونه من مياه الأمطار[١] وذكر الفقيه أبو الربيع الملتاني[٢]: أن في طريق غانة من سجلماسة إليها أشجارًا عظيمة مجوفة، يجتمع في تجاويفها مياه الأمطار فتبقى كالحياض، والمطر في الشتاء بها كثير جدًا، فتبقى المياه في تجاويف تلك الأشجار إلى زمان الصيف، فالسابلة يشربونها في مرورهم إلى غانة، ولولا تلك المياه لتعذر عليهم المرور إليها[٣] .

ثانيًا: مياه الأنهار: كان أهل إفريقية يعمدون إلى تنظيم مياه الأنهار لأجل الانتفاع بها بشكل أفضل، وأن لديهم قوانين وأطراً قانونية لتنظيم عملية الاستفادة من هذه الأنهار؛ لأجل السقي والشرب بصورة تعكس تقدمًا حضاريًّا على أكثر من صعيد.

ويصف التجاني في رحلته: "ماء وادي مجشر[٤] بأنه ينحدر من الجبال، ويذكر أن هذا الوادي أصل مائه من الجبل المتصل من المغرب إلى المشرق في جهة الجنوب، وأن ماءه ينحدر، فيجتمع عند جبل صغير يعرف برأس تاجرا، على بُعْد نحو خمسة عشر ميلاً منه، ثم

---

(١) التجاني: رحلة التجاني: ص٦٨.

(٢) هو الشيخ أحمد بن عثمان بن عبدالجبار التونسي الملتاني، عالم فاضل متقن، رحل للمشرق ولقي فضلاء أجلة، ثم رجع فسكن بجاية وأقرأ بها، له علم بالعربية والفقه وأصول الدين، وحظ من التصوف، استدعاه الإمام أبو زكريا إلى حضرة أفريقيا، توفي سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م. انظر: أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم: الدكتور عبدالحميد عبدالله الهرامة، وضع هوامشه وفهارسه: طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية – طرابلس (ليبيا)، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م، ص٧٨–٧٩.

(٣) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص٥٧.

(٤) المُجَشَّر: قال ابن الأعرابي: المجشر: الذي لا يرعى قرب الماء، وقال المنذري بعكسه: وهو الذي يرعى قرب الماء. انظر: الزبيدي: تاج العروس، ج١٠، ص٤٣٤ وقال إحسان عباس: المجشر: المرعى. المقري التلمساني، شهاب الدين أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨، ج١، ص٢٦٨، وقال الدكتور كمال السيد أبو مصطفى: المجشر: يقصد به في المصطلح المغربي والأندلسي الضيعة أو المزرعة، كذلك يتضح من نص للمقري أن المجشر قد يعني موضع الزراعة والرعي معًا. كمال أبو مصطفى: جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي، ص٥٠

يفترق من تاجرا واديان ينتهيان إلى البحر، أحدهما: هذا الوادي وهو وادي مجشر، والثاني: الوادي الأعلى إلى جهة المشرق وهو المعروف بوادي الفجاء " [١].

ويذكر أن وادي مجشر في بعض أماكنه المرتفعة تجف روافده من الأنهار ولا تتحرك بالماء إلا مع هطول الأمطار، وأخبر أن المنزل الذي نزل به وقتها كان من المواضع المرتفعة، فلم يكن به؛ إذ ذاك ماء، فبات به في تلك الليلة[٢] ومن خلال هذه الرواية يتضح : أن جريان بعض الأنهار كان موسميًّا، يجري في وقت الشتاء بما يشبه السيل، ثم ينقطع في الأوقات الأخرى، ويخبر التجاني أن الناس كانوا يستخدمون الأنهار لتشغيل الطواحين، لا سيما في المناطق المنخفضة منه التي لا تخلو من الماء، فقد وصل يوم الخميس إلى وادي مجشر، ويعرف هذا الموضع منه بالطواحين، وتضاف إليه فيقال: " طواحين مجشر، وأخبر أن المكان الذي نزل فيه هذه المرة كان متعالياً إلى جهة الجنوب على المرة الأولى، فجاء المنزل الأول بينه وبين البحر، وهذه الطواحين مواضع هذا الوادي المنخفضة [٣].

وفي مكان آخر في منطقة قرب القيروان، يُخبر التجاني عن وادي (أي نهر) يظل يسقي المزارع في طريقه إلى أن يصل القيروان، واسمه وادي زرود، وأصل هذا النهر من موضع يعرف بفران، وهذا الوادي يمر في طريقه على مزارع تسقي منه وينتفع به فيها، فإذا انتهي إلى الأصنام وهو موضع في جوف القيروان، انتشر في سبخة هنالك متسعة، وضاع ماؤه فيها فلم ينتفع به[٤] ويذكر التجاني: أن في قابس واديًا يسقي بساتينها ومزارعها، ويخترق بيوتها وشوارعها [٥]، ولوادي قابس منابع كثيرة متتالية، يبتدئ الوادي من أبعدها، ثم يمر على بقية هذه المنابع، منبعًا تلو الآخر، فتتجمع مياه وفيرة تنحدر بمجموعها نحو غابة قابس وبساتينها [٦].

---

[١] التجاني: رحلة التجاني، ص١٢٠.
[٢] التجاني: الرحلة، ص١٢٠-١٢١.
[٣] المصدر نفسه، ص١٣٣.
[٤] التجاني: رحلة التجاني، ص١١٨.
[٥] التجاني: نفس، ص٨٧-٨٨.
[٦] المرزوقي، محمد: قابس جنة الدنيا – غابتها، خليجها، مدينتها، سكانها، تاريخها، رجالها، مكتبة الخانجي – مصر، ومكتبة المتنبي– بغداد، ١٩٦٢م، ص٢٠– ٢٢.

ثالثاً: العيون: لم يغفل التجاني في رحلته الشيقة التي جاب فيها كثيراً من البلاد الأفريقية، أن يذكر لنا العيون التي مر عليها وهي: عين الأمير (بقابس)، وعين تامدنت، وعين تاورغا، وعين سلام (بقابس)، عين سلام (بقلعة بني حماد)، وعين طرة، عين فارة، وعين ودرس (تودرست)، العيون (بطرابلس)، وعيون رحال[١]، ووصف عيناً كبريتية تسمى عندما اجتاز الحامة المعروفة بحامة الجزيرة، وذكر أنَّ ماءها شديد السخونة، ويوصي بها الأطباء لإبراء ذوي العاهات، حيث يطلبون منهم الجلوس على مائها لدوائهم، وهذه الحامة جليلة مجربة النفع، وكانت قبل هذا محجوبة عن الناس ببناء محدق بها، ثم فتحت بعد ذلك للناس للاستشفاء [٢]، ويصف التجاني أحد المنازل التي نزل فيها أثناء رحلته، بأنه :" منزل فيه نخيلات قليلة، وعيون من الماء جارية، وفيه قصر متسع يعرف باسم بوذرف "[٣] .

وتحدث التجاني عن قابس ووصف عينها الخرارة، وذكر: " أنها محاطة بسور صخر عظيم من بناء الأولين، ولها أرباض واسعة، وجل أسواقها في أرباضها، وقد دار بسورها خندق متسع يجرون الماء إليه إذا خافوا من نزول عدو عليهم، فيكون أمنع شيء لها، ولها واد يسقي بساتينها ومزارعها، ويخترق في كثير من مواضع الغابة دورها وشوارعها، وأصل هذا الوادي من عين خرارة في جبل بين القبلة والمغرب منها، وأكثر بساتينها فيما بين المدينة والبحر، وبتلك الجهة الساحة المشهورة باسم ساحة عنبر" [٤] وقد وصفت قابس بأنها مليئة بالعيون الجارية؛ وكان لذلك

---

(١) التجاني: الرحلة، ص٨٩، ٣١٢، ١٥٣، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١٤١، ١٤٢، ٢٤٦، ٣١٥، ٣١٦.

(٢) التجاني: نفسه، ص١٠، وتعرف الآن بحمام الأنف، قرية عامرة بها قصر لملوك العائلة الحسينية كانوا يشتون به، وبها عينان حارتان تقصدان للاستشفاء.

(٣) التجاني: نفسه، ص٨٦. وفي هذا الموضع يقول أبو عبدالله محمد بن محمد المزدوري الهنتاتي في أيام اضطرته الحال إلى الخروج من تونس والسكنى بتلك الجهات أنشدنيه:

هذي عيون وذرف ... دع العيون تذرف

بُدّلتُ من أرضي بها ... وا أسفي وا أسفي

(٤) التجاني: الرحلة ، ص ٨٧– ٨٨.

أثر كبير على ازدهار النشاط الاقتصادي في المدينة ؛ فانتشرت القصور والحدائق والمتنزهات [١]، وذكر: " أن أكثر بساتينها فيما بين المدينة والبحر، وبتلك الجهة الساحة المشهورة باسم ساحة عنبر" وهي متنزه لسكان المدينة [٢] .

كما تحدث عن اثنتين من العيون التي يصيبها الفساد والأوبئة، وذلك في معرض إشارته إلى بعض المكاره التي حفت بها بساتين قابس؛ وذلك ما يصيبها من الوباء، وينتاب ساكنها من الأمراض؛ وسبب ذلك بحسب اعتقاد أهلها كثرة شجرة الدفلى[٣] بها، فيكتسب الماء منها لدى جريه سمية ومرارة تضر بأبدان ساكنيها كثيراً؛ ولذلك لا تجد وجوه كثير من أهلها إلا مصفرة؛ وذلك بسبب فساد مائها وهوائها وليس في جميع مياهها ما يسلم من ذلك إلا العين المعروفة بعين الأمير، والعين الأخرى المعروفة بعين سلام، فإن ماء هاتين يسلم من الفساد لعدم مروره على نبتة الدفلى[٤].

وتحدث عن قرية (كتانة) [٥]، ووصف عينًا فيها بأن ماءها عين فوارة عذبة قد اجتمعت منها بركة ماء متسعة تلاصق سور القصر[٦] من جهته الغربية، وتخرج مذانب ومسارب مائية تخترق الغابة فتعمها بالسقي[٧]. وعند مروره إلى قرية تسمى (الزارات) أشار إلى عين سحيقة العمق، ووصفها بأنها قرية ذات نخل كثير وماء غزير ينبع من عين حمئة، وقد اجتمعت لدى

---

[١] الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ص٢٧٩.

[٢] التجاني: المصدر السابق، ص ٨٧– ٨٨ .

[٣] الدفلى: نبت مر زهره كالورد الأحمر وحمله كالخروب من الفصيلة الدفلية ويتخذ للزينة. مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط: ج١، ص٢٩٠.

[٤] التجاني: المصدر السابق: ص٨٩.

[٥] هي قرية صغيرة ملتفة الشجر حسنة المنظر .

[٦] هو قصر كبير لأهل قرية كتانة يأوون إليه .

[٧] التجاني: المصدر نفسه، ص١١٩.

منبعها أيضًا بركة ماء متسعة القطر عميقة القعر[١]، ولم يغفل التجاني عن الإشارة إلى العيون الكبريتية التي صادفها، حيث تناولها عندما تعرض للحديث عن حمة مطماطة وذكر أنها: " تعرف بحمة مطماطة تفرقة بينها وبين حمة توزر المعروفة بحمة البهاليل، وذكر أنه رأى مدينة حاضرة تحف بها غابة نخل تحمل حمله، وجميع مياه هذه البلدة شروبة، وهي في غاية السخونة، وبسخونة مائها سميت الحمة، والحمة في اللغة هي العين التي بمائها سخونة "[٢]، وتحدث عن مدينة حمة مطامطة، وذكر أن الناس بنوا حمامات تستقي ماءها من العيون، وأخبر أنه: بهذه القصبة قناة ماء يتسرب إليها من خارجها في غاية القوة والتدفق، وقد بني عليها بيت على شكل حمام جاء في نهاية الظرافة والحسن[٣].

كما تحدث عن عيون تسمى عيون رحال، وأخبر بأنها:" قفرة تتبع بها عينان نضاختان، وإلى جوارها نخيلات قليلة "[٤]. وعندما زار بلاد نفزاوة[٥] أشار إلى : عين بها تسمى (عين طرة)، وأخبر بأنها إحدى قاعدتي بلاد نفزاوة، وهما طرة وبشرى، وهي محفوفة بالنخيل وبها التمر

---

[١] التجاني: رحلة التجاني، ص١١٩.

[٢] المصدر: نفسه، ص١٣٤–١٣٥ .

[٣] المصدر: نفسه، ص١٣٦.

[٤] نفسه، ص١٤١.

[٥] **نفزاوة:** مدينة من أعمال إفريقية، وتسير من القيروان إلى نفزاوة ستة أيام نحو المغرب، وبمدينة نفزاوة عين تسمّى بالبربرية تاورغي، وهي عين كبيرة لا يدرك قعرها، ولمدينة نفزاوة سور صخر وطوب ولها ستة أبواب وفيها جامع وحمّام وأسواق حافلة وهي كثيرة النخل والثمار وحواليها عيون كثيرة وفي قبلتها مدينة أزليّة تعرف بالمدينة عليها سور وبها جامع وسوق، وبين مدينة نفزاوة وقابس ثلاثة أيام، وبينها وبين قفصة مرحلتان، وبينها وبين قيطون ثلاث مراحل، ومن نفزاوة تسير إلى بلاد قسطيلية وبينهما أرض لا يهتدى إلى الطريق فيها إلا بخشب منصوبة وأدلّاء، فإن ضلّ فيها أحد يمينًا أو شمالاً غرق في أرض دهشة تشبه الصابون في الرطوبة وقد هلكت فيها العساكر والجماعات ممن دخلها ولم يدر أمرها، وتصل هذه الأرض السواخة إلى غدامس، ويقال: نفزاوة من نواحي الزاب الكبير بالجريد. الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٩٦.

المفضل على جميع البلاد، وأهم مناطق انتاجها بلاد الواحات جنوب طرابلس [١]، وبمقربة من هذه العين قصبة البلد[٢]، وفي قرية (بشرى)[٣] ذكر خبر عين بقربها تسمى (عين تاورغا) أعظم اتساعًا من عين طرة وأقوى ماءً؛ إلا إن في عين طرة حسناً ليس في عين تاورغا " [٤] .

وعندما تحدث عن (وادي الرمل)، ذكر أن فيه ماء عذبًا ومصدر المياه عدة عيون تتبع فيه، ووصف الوادي بأنه متسع عذب الماء، لا ينقطع ماؤه في شتاء ولا في صيف، ومبدؤه من الجبل قاطعًا إلى البحر، والمتجه ناحية المشرق يجعل الجبل يمينه، أو المتجه ناحية المغرب يجعله عن يساره، وذكر أن أصل مائه من عيون تتبع في أثنائه، تبتدئ من مسافة قريبة من الجبل فتجري قليلاً ثم تنقطع ثم تبتدئ بعدها عيون أخرى، ويصب ماؤها في البحر، ولا يعم الماء جميع الوادي إلا في وقت الأمطار عند نزول السيول من الجبل[٥] .

كما أشار التجاني إلى عين تسمى (عين تامدنت[٦]) ووصفها بأنها عين متسعة عذبة الماء، تجري في واد متسع يشتمل على غابات مشتبكة من نباتات الأبا والقصب، وإلى جانبها أحساء ماء تشبهها في عذوبة الطعم[٧] .

---

[١] التجاني: الرحلة، ص ٢١٤.

[٢] التجاني: نفسه، ص١٤٢.

[٣] **بشرى**: ذكرها ياقوت الحموي واكتفى بالقول: "اسم قرية"، ولم يزد على ذلك. الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٤٢٨.

[٤] التجاني: المصدر السابق ، ص١٥٢.

[٥] التجاني: نفسه، ص٣١٠.

[٦] تَامَدَلْتُ: بلد من بلاد المغرب شرقي لمطة وقيل تامدنت، بالنون: مدينة في مضيق بين جبلين في سند وعر، ولها مزارع واسعة وحنطة موصوفة من نواحي إفريقية. الحموي: معجم البلدان: ج٢، ص٧.

[٧] التجاني: رحلة التجاني، ص٣١٢.

ووصف عينًا أخرى تسمى (عين فارة)، وذكر أن هذه العين أعذب من الأولى، وهي بواد حسن المنظر شارح للنفس، وقبلها عين أخرى جارية إلا إنها أضعف جريًا منها، يجري ماؤها فينتهي إلى هذه العين، وتجتمع منه بركة ماء واسعة قد نمت حولها أشجار العرعر والخروع وغيرها من الأشجار، ثم يجري الماء من تلك البركة جريًا قويًّا ويصب في البحر. [١].

وتعرض التجاني لعيون مدينة توزر[٢]، ووصفها، وذكر طريقة تقسيم مياهها، حيث ذكر أن: " توزر هي قاعدة البلاد الجريدية، وليس في بلاد الجريد غابة أكبر، منها ولا أكثر مياهاً منها "[٣]، وذكر أن أصل مياهها من عيون تنبع من الرمل وتجتمع خارج البلد في واد واسع، ثم تتشعب منه جداول كثيرة، وتتفرع عن كل جدول منها مذانب يقسمونها بينهم على أملاك لهم مقررة مقاسم من المياه معروفة، ولهم على قسمها أمناء ممن يتصف الصلاح فيهم، ويقسمونها على الساعات من النهار والليل، بحساب لهم في ذلك معروف، وأمر مقرر مألوف، وعلى ذلك الماء أرحاء كثيرة منصوبة، [٤]

ومن خلال رواية التجاني؛ يتضح أنه: كانت هناك طرق معروفه لتقسيم المياه بين الناس، ونظام مائي محكم يقوم عليه أمناء، وكذلك وجود منشآت مائية على الأنهار والعيون والآبار للاستفادة من المياه بأكبر قدر ممكن وتقليل المهدر منها . كما أشار التجاني إلى اهتمام فلاحو إفريقية بالتسميد للارض المجدبة في بلاد الجريد عن طريق التزبيل. [٥]

---

[١] التجاني: الرحلة، ص٣١٦.

[٢] **توزر**: مدينة في أقصى إفريقية من نواحي الزاب الكبير من أعمال الجريد، معمورة، بينها وبين نفطة عشرة فراسخ، وأرضها سبخة، بها نخل كثير للمزيد عنها انظر : الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٥٨.

[٣] التجاني : المصدر السابق ، ص ١٥٧.

[٤] التجاني: رحلة التجاني، ص١٥٧–١٥٨.

[٥] التجاني: رحلة التجاني، ص١٦٠.

كما ذكر أيضًا أن فيها مكانًا يدعى (بباب المنشر) يتجمع الناس فيه للنزهة والاستجمام ، وهو مكان تجمع المياه ومنه تتفرع عدة فروع صغيرة وهو من أفضل الأماكن في توزر[١]

وتحدث التجاني عن عين قرب قرية زريق، وذكر أنه بمقربة من زريق نخلات على عين ماء هنالك عذبة المذاق[٢]،وقد عمل أهالي إفريقية على توفير مياه الري عن طريق حفر الآبار، فقد قاموا بحفر بئر في قرية أجاس بالقرب من قابس عذبة الماء منها يشربون ويسقون مزارعهم[٣].

وتوجد مجموعة أخرى من الأودية التي يمكن أن يطلق عليها أودية سهوبية بحتة، فهي ذات نظام مائي متنبذب بشدة، ولا تجري هذه الأودية إلا بعد سقوط أمطار غزيرة، ومنطقة قابس تتلقى أمطارًا كثيرة مثل باقي أودية جنوب إفريقية بصفة عامة، تلك التي تصب في خليج قابس وهذا الجريان المتنبذب لأودية السهوب بتقسيماتها المختلفة لا يعتمد عليه في الزراعة[٤]، وقد تحدث الونشريسي عن مياه الفلوات والأدوية التي تتجمع من مياه الأمطار، حيث ذكر أن مياه الفلوات في الأودية لا تكون ملكاً بمجرد الانتفاع بها دون استحقاق أصلها، وذكر أنه قد ترد الماشية مياه غير أهلها فيعمد أهل الماشية أن يتملكوا ذلك بورود ماشيتهم عليها ورعيها فيها، ولكن لا يكون لهم ذلك؛ لأن مجرد الانتفاع بالماء غير المملوك الأصل مدة الحيازة لا يكون سببًا في التملك[٥] وقد وردت مسائل كثيرة من نحو ذلك في كتاب المعيار حول المياه، وطرق توزيعها وكيفية الاستفادة منها.[٦]

---

[١] التجاني: الرحلة، ص ص١٥٨.

[٢] نفسه، ص١٨٠.

[٣] نفسه، ص١٨١.

[٤] التجاني: رحلة التجاني ، ص١١٨.

[٥] الونشريسي: المعيار المعرب، ج٨، ص٣٨٤.

[٦] على سبيل المثال من هذه النوازل المتعلقة بقضايا المياه انظر: الونشريسي: المعيار المعرب، ج٨، ص٤٠٧ ،٤١٣، ٤١٤، ٤١٦ ، ٤١٨ ،٤٢٣، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ،٤٣٤ ،

رابعًا: البحيرات[١] **والغدران**[٢]: ومما يؤكد حضور ظاهرة البحيرات والغدران في حياة أهل إفريقية وانشغالهم بها، أنه قد أشار إليها المؤرخون والرحالة، فهذا التجاني على سبيل المثال: يشير إلى إحدى البحيرات وذلك حين توجَّه إلى توزر، فقد ارتحل عن نفزاوة وشرع في أول السبخة [٣] المعروفة بتاكمرت، فقطع يسيرًا منها وبات هناك على عين ماء، فلما كان ثلث الليل الأخير ارتحل وأخذ في اجتياز هذه السبخة، فلم يزل يقطعها سيرًا إلى الزوال من اليوم التالي، ووجد فيها معالم قائمة من جذوع النخل تمنع السالك من الخروج عن طريقها المسلوك يميناً وشمالاً؛ لأن ما على يمينها وشمالها من الأرض مغائص لا تثبت عليها قدم، ولا يسلكها أحد جاهل بها إلا غاص فيها، وقد هلكت فيها الجماعات والعساكر ممن دخلها ولم يعرف أمرها، وإذا غاص فيها أحد التأمت الأرض في الحين وعادت كما كانت[٤].

ووصف التجاني هذه السبخة قائلاً: "إنها من غرائب الدنيا التي أغفلها المؤرخون، وأهمل وصفها الإخباريون، وذكر أنها أميال في أميال سطحًا واحدًا كالفضة المسبوكة، أو الرخام المصقول، يكاد ينفذه البصر لصفائه، وكأنما هو غدير ماء جمد بمائه، والناس يمشون فيها كأنهم يمشون على بساط من الكافور أو سطح من البلور"[٥]، ويضيف التجاني في وصف هذه السبخة، بأنه شاهد: كيف يقاوم الناس النزول في الأرض، وكيف رأى بعض المخلفات الآدمية، التي تدل على هلاك كثير من المارة

---

[١] **البحيرة**: مُجْتَمع الماء تحيط به الأرض. مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط: ج١، ص٤٠.

[٢] **الغدير**: القطعة من الماء يغادرها السيل و (عند الجغرافيين) النهر الصغير. مصطفى وآخرون: المرجع السابق، ج٢، ص٦٤٥.

[٣] **السبخة**: أرض ذات نز وملح، والسبخ: المكان تسوخ فيه الأقدام، والسبخة: ما يعلو الماء من طول الترك كالطحلب ونحوه. الزبيدي: تاج العروس، ج٧، ص٢٦٩.

[٤] التجاني: رحلة التجاني، ص١٥٤–١٥٥.

[٥] التجاني: نفسه، ص١٥٥.

في هذه المنطقة، وقد رأى امرأة قد ضمت يدها على طفلتها فماتتا معاً[١]. ويذكر من عجائب ماء هذه السبخة أنه: " لا يمكن أن يشرب بها ماء عذب، فإن الماء إذا استصحب فيها عاد بهوائها ملحًا أجاجًا على طبعها " [٢] .

وعن ظاهرة الأحساء[٣] والغدران التي تظهر وقت السيول وهطول الأمطار، ثم تجف بعد ذلك يذكر التجاني ارتحاله إلى موضع يعرف بالعقلة، وهو واد متسع بجبل، يجري في وقت الأمطار ويجف في غيره، وهناك صادفه في ذلك الوقت عدم وجود ماء، إلا ماء في أحساء صغيرة، وتلك الأحساء هي المسماة بالعقلة، والعقلة عند العرب هي التي يحبس الماء فيها عن أن يسير، فبات هنالك تلك الليلة على غير ماء، وقاسى في مبيته هذا شدة كبيرة [٤] .

وتابع التجاني حديثه عن ماء القصار ووصف ما فيها من أحساء، حيث انتقل إلى ماء يعرف بالقصار، وهي أحساء لا يستطيع أحد لمائها شربًا، ولا يجب لليلة قربها قربًا، ثم انتقل إلى ماء يعرف بأبي لا يحمد مذاقه مختبر، ولا يصبر لتجرع صبره مصطبر، ومن هذا الماء فارق أرض المحاميد، وودع في هذا اليوم أميرهم يعقوب بن عطية، وانقلب راجعًا إلى مخيمه، وبات تلك الليلة هنالك، ثم ارتحل من الغد فنزل بماء يعرف بتاذر، وهو أول أرض الجواري[٥] .

---

[١] التجاني: رحلة التجاني، ص١٥٦.

[٢] المصدر نفسه، ص١٥٦.يمكن القول إن ماء هذه السبخة مالح ، لكن لا يمكن القبول: أن الهواء يغير طعم الماء فيها ، ويجعله مالحًا هذا من باب المبالغة والتهويل .

[٣] **الأحساء:** السهل من الأرض يستنقع فيه الماء والرمل المتراكم تحته صلابة فإذا نزل المطر منع الرمل حر الشمس أن ينشفه ومنعته الصلابة أَن يغور فإذا حفر وجه الرمل عن ذلك المَاء نبع باردًا عذبًا ، كما يحدث في إقليم الأحساء فِي شرقي جزيرة العرب. ينطر: مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط: ج١، ص١٧٤.

[٤] التجاني: المصدر السابق، ص١٨٣.

[٥] التجاني: الرحلة، ص٢٠٥-٢٠٦.

ويتبين من خلال ما تم استعراضه من رحلة التجاني أن الهاجس الذي كان يدندن حوله هو الماء، حيث كان يكثر من التحدث عنه ووصف أماكنه ومسمياته، حتى غدا شغله الشاغل، وهذا أمر طبيعي كون المسافر في البيداء أكثر ما يفكر فيه ويخشاه هو فقد الماء، فالماء في كل الأحوال يساوي الحياة، ولكن تتجلى هذه الحقيقة أكثر في حال السفر، حيث يبتعد المرء عن مواطن المياه والتجمعات البشرية، ويصبح أسير الصحراء التي لا يعرف مصيره فيها، فالسفر قطعة من العذاب، وفقد الماء في مثل هذا الموطن يعني الموت المحتم، وتتحول مصادر المياه الطبيعية من الأمطار، والأنهار، والعيون، والبحيرات إلى طوق النجاة، والرحمة التي لا يستغني عنها العبد في مثل هذه المواطن أو غيرها، ولكنها تتجلى في حالة السفر على صورة التمام.

ثانيًا: المصادر المائية المستحدثة : (الآبار والعيون والقنوات الخاصة) [١]:

تعد الآبار وسيلة أساسية وحيوية لإنتاج المياه في إفريقية؛ وذلك لقلة مياه الأنهار فيها، وقد تختلف أهميتها باختلاف المجال الجغرافي الموجودة فيه، وأيضًا باختلاف الظروف الطبيعية بصفة عامة، وهذا الاختلاف انعكس بصفة مباشرة على الجانب الفقهي التشريعي[٢].

ويلحق بالآبار الخاصة العيون الخاصة، وهي متعلقة بعملية الاستنباط البشري، لتكون بذلك العيون المائية ملكاً لمن بذل الجهد في استنباطها، أو أن يستنبطها الرجل في ملكه، فيكون أحق بماء العيون لشرب أرضه، فإن كان قدر كفايتها فلا حق عليه إلا لشارب مضطر[٣]، كما يلحق بها القنوات الخاصة: وهي المجاري المائية المعروفة بالأنهار الآدمية، أي الأنهار التي قام الناس بحفرها، وأصبحت ملكًا مشتركًا بينهم لا يختص أحدهم بملكه، وبهذا يكون النهر أو المجرى أو المصرف المائي مملوكاً لمن قام بحفره من أصحاب الأرض لا حق فيه لغيره [٤].

---

[١] عليوش : الثروة المائية في ريف المغرب الأوسط ، ص٥١.

[٢] برنشيفك: تاريخ إفريقية، ج٢،ص٢١٨ ؛ علوي: قضايا الماء في بلاد المغرب الأقصى ، ص٥٢.

[٣] علوي: المرجع السابق، ص ص٥٣-٥٤.

[٤] علوي: نفسه، ص٥١.

وتحدث التجاني في رحلته في بلاد إفريقية عن كثير من الآبار التي مر عليها في رحلته، حيث ذكر منها: (بئر الزكرة، وبئر الشهداء، وبئر طشانة، وبئر العقلة، وبئر الكاهنة، وبئر أبي الكنود وبئر ينوت) [١] ، وألمح إلى وجود سواني يتم استخراج ماء الآبار بواسطتها، فقد خلص إلى واد يعرف بوادي الزركين، ورأى هنالك سواني[٢] لبعض المرابطين تسقي من آبار عذبة[٣]، وهذا يدل على وجود المياه الجوفية في هذه المناطق، وأن السكان يعملون على استنباطها واستصلاحها والاستفادة منها في الشرب وسقي المزروعات.

إن وجود مثل هذه التقنيات المائية في مدن إفريقية؛ يدل على ما وصلت إليه من تقدم ورقي حضاري وتقني، ومع عدم انتظام سقوط الأمطار في أفريقيا، اتجهت عناية سلاطين الدولة الحفصية للاستفادة من مياه الأمطار والسيول وحفظها في المواجل[٤] والسدود والخزانات الكبيرة، وهذه التقنية موجودة في إفريقية منذ عصر الولاة حيث ذكر البكري قائلاً:". .وخارج مدينة القيروان

---

[١] التجاني: رحلة التجاني، ص ص٣١٩، ١٦٢، ٣١٠، ٢٠٥، ٥٨، ٢٥٩، ٣١٧.

[٢] **السواني:** جمع سانية، وتطلق بعدة معان، منها: السانية: بمعنى الدولاب أو الناعورة التي يجرها البعير، وقد تطلق السانية على البعير نفسه الذي يستقى عليه من البئر، كما تطلق السانية على المرأة التي تتولى سقاية الناس. انظر: قلعجي، محمد رواس، قنيبي، حامد صادق: معجم لغة الفقهاء، دار النفائس–بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٨٨م، ص٢٣٩، وهي أصلها من (سنى) فالسين والنون والحرف المعتل أصل واحد يدل على سقي، وفيه ما يدل على العلو والارتفاع، يقال: سنت الناقة إذا سقت الأرض، والسحابة تسنو الأرض، والقوم يستنون لأنفسهم إذا استقوا. ابن فارس: مقاييس اللغة: ج٣، ص١٠٣؛ ويذكر برنشفيك أنها البستان المروي، تاريخ إفريقية،ج٢،ص ٢١٦.

[٣] التجاني: المصدر السابق، ص٣٢٠.

[٤] **المواجل:** مفردها (المأْجَلُ): شبه حوض واسع يؤجَّل فيه ماءُ البئر أو القناة أيّاماً ثم يُفَجَّر في الزّرع. ابن فارس، أحمد القزويني: مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر– بيروت، ١٩٧٩م، ج١، ص٦٥.

خمسة عشر ماجلاً للماء سقايات لأهلها من بنيان هشام بن عبد الملك وغيره، أعظمها شأنا وأفخمها منصبّا ماجل أبي إبراهيم أحمد بن محمّد بن الأغلب[١] بباب تونس، وهو مستدير متناهي الكبر في وسطه صومعة مثمّنة في أعلاها قصبة لرقبة مفتّحة على أربعة أبواب على أحد عشر رجلا لا خلل بينهم كيلا يصل مخط، فإذا امتلأ الماجل كان دلكا، وسطح هذه القصبة نحو ذراعين، كان ابن الأغلب يدخل إلى هذه القبّة في مركب يسمّى بالزلّاج، ويتّصل بهذا الماجل في قبليّه أقباء طويلة معقودة آزاجا على آزاج، وكان زيادة الله[٢] قد بنى على غربيّ هذا الماجل قصراً، وبجوفيّ هذا الماجل ماجل لطيف متّصل به يسمّى (الفسقية)، يقع فيه ماء الوادي، إذا جرى على جنبتين كبيرتين تتكسر فيه شدّة جريان الماء، ثمّ يدخل منه إلى الماجل الكبير..."[٣].

أما السدود الصغيرة، فكان يقيمها السكان في المناطق المغروسة، وذلك للاستفادة من مياه الأمطار بتخزينها أمام هذه السدود، فتشكل بحيرات صغيرة للاستفادة منها في الري وزراعة المراعي، كما توجد السدود التحويلية التي تستخدم للري، حيث الأودية الجافة، وتشيد حواجز بهدف رفع مستوى المياه، ومن ثم تحويلها عبر قنوات تنتشر على ضفاف الوادي إلى الأراضي الزراعية لريها[٤] .

---

[١] أحمد بن محمد بن الأغلب سابع الأغالبة أصحاب تونس وإفريقية، تولى بعد وفاة عمه أبي العَبَّاس (محمد بن الأغلب) سنة ٢٤٢هـ، وكان حسن السيرة، حبًا للعمران، رفيقًا بالرعية، بلغ ما بناه من الحصون بإفريقية نحو عشرة آلاف حصن، بالحجارة والكلس وأبواب الحديد. زاد في جامع القيروان ومسجد تونس، وبنى سور سوسة (سنة ٢٤٥)،للمزيد عنه انظر :الزركلي: الأعلام، ج١، ص٢٠٤.

[٢] **زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب بن سالم، أبو محمد:** رابع الأغالبة أصحاب إفريقية، ولي بعد وفاة أخيه عبد الله (سنة ٢٠١ هـ وجاءه التقليد من قبل المأمون العباسي، وثبت على دعائه له أيام وثوب إبْراهيم بن المَهْدِي على الخلافة، فلما خلصت للمأمون شكر له ذلك، وأول من سمي (زيادة الله) من ولاة بني الأغلب ،الزركلي: الأعلام: ج٣، ص٥٦.

[٣] البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي: المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م، ج٢، ص٦٧٧.

[٤] دحروج: مدينة قابس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية، ص١١٩.

وقد مر التجاني أثناء رحلته بمناطق أرضها قاسية وصلبة يصعب حفر الآبار فيها، وتحدث عن غمراسن وهو اسم لناحية من الجبل المتصل الذي أصله جبل درن بالمغرب، وذكر أن فيها بعض الآبار، وتحف بهذا الجبل مزارع فيها نخل كثير، لا يرى أحسن من رطبه، وفيها آبار ليست بالكثيرة يستقون منها، وأكثر مزارعهم الذرة التي يسمونها القصب، ورأى التجاني أن سبب قلة آبارهم هو ما يعانونه في حفرها من شدة الأرض وصلابتها، حتى إن الرجل ليمكث في حفر البئر العام والعامين بحسب كبر البئر وصغرها[١] .

وهذا يدل على وجود صعوبات في بعض مناطق إفريقية تواجه الإنسان هناك في حفر الآبار التي قد يستغرق حفرها سنتين؛ لذلك يتوجه السكان إلى الاعتماد على تجمعات مياه الأمطار.

وأشار التجاني إلى مجموعة من الآبار الأخرى، فتحدث عن بئر العقلة وكيف أن ورود الإبل عليها جعلها تتغير، فيذكر أنه بات على غير ماء، ثم أصبح فنزل ببئر تعرف بالعقلة، وهي بئر مرة تتضمنها أرض قفرة، [٢].

وكلامه هذا يدل على: أن البئر عندما يتم حفرها تبقى صالحة للاستعمال فترة من الزمن تطول أو تقصر، ثم تنتهي صلاحيتها أو تقل، إما بسبب نقصان كمية المياه في البئر، على اعتبار أنها من الآبار المتجددة التي يزيد ماؤها أو يقل بحسب الهطولات المطرية، فإذا كانت إحدى السنوات سنة خير وبركة وأمطار، فإن هذه الآبار تمتلئ وتتدفق بالمياه، وإذا كانت سنة شح وقحط، فإن المياه في هذه البئر وأمثالها تغور، أو يقل منسوبها، وقد يكون انتهاء صلاحية البئر بسبب تحول مائه من الماء العذب الصالح للشرب إلى الماء المالح، فيؤدي ذلك إلى هجران البئر واندثاره مع الزمن، ثم البحث عن مكان جديد لحفر بئر جديد.

---

[١] التجاني: رحلة التجاني، ص١٨٦.

[٢] التجاني : نفسه ، ص٢٠٥.

كما تحدث التجاني عن بئر أخرى تسمى (ينوت)، وهي بئر معينة عذبة بسفح[١] جبل عال، فذكر أنه نزل بالبئر المعروفة ببئر ينوت[٢]. وأشار إلى بئر الكنود[٣] الواقعة في مدينة طرابلس [٤]، وذكر ما شاع بين الناس بخصوصها أن من شرب منها فقد عقله، وأنهم يعيرون الشارب منها ومن أتى منهم بما يلام عليه قيل له: لا عتب عليك فقد شربت من بئر أبي الكنود، وهذه البئر قد رآها التجاني بداخل المدينة، وعليها يورد الناس بهائمهم، وكثير من أهل البلد يشرب من مائها ، ولا يتحرج من ذلك مع علمه بما يشاع عنها[٥] .

وتحدث عن الماء الذي تشرب منه قرية بتاغرمت، حيث ذكر أن شربهم من أجباب مملوكة لهم تملأها السيول المنحدرة من تلك الجبال في أوقات الأمطار[٦] ، وبهذا يتبين أن السيول هي التي تغذي هذه الآبار، ما يعني أنها من المياه الجوفية المتجددة.

---

(١) **السَّفْحُ**: عُرْضُ الجبل حيث يسفح فيه الماء، وهو عُرْضُه المضطجع؛ وقيل: السفح أصل الجبل؛ وقيل: هو الحضيض الأسفل، والجمع سفوح؛ والسفوح أَيضًا: الصخور اللينة التزلقة. ابن منظور: لسان العرب، ج٢، ص٤٨٥.

(٢) التجاني: رحلة التجاني، ص٣١٧.

(٣) **بئر أبي الكنود**: هي بئر في مدينة طرابلس الليبية يعيّرون بها ، ويحمق من شرب منها فيقال للرجل منهم إذا أتى بما يلام: لا يعتب عليك لأنك شربت من بئر أبي الكنود. الحموي: معجم البلدان: ج٤، ص٢٥.

(٤) **طرابلس**: مدينة في المغرب الإسلامي بها أسواق حافلة، وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون أعمرها وأشهرها مسجد الشعاب، وهي كثيرة الثمار والخيرات، ولها بساتين جليلة في شرقيها وتتصل بالمدينة سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير، وأعذب آبارها بئر القبّة. الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢٥.

(٥) التجاني: المصدر السابق، ص٢٥٩.

(٦) التجاني: رحلة التجاني، ص٣١٨.

وفي قابس تتكون المياه الجوفية من: الفجارات[١]: وهي نوع من الآبار وتسمى في براري قابس بالخرانق والآبار السطحية: كانت تشكل الحل الجذري لمشكلات إمدادات المياه للشرب والري في المناطق الجافة والصحراوية لقابس .

وتوجد المياه الجوفية في كل مكان في البوادي وعند الجبال حول قابس، مما جعل حفر البئر أمرًا ميسورًا لمن يريد الزراعة أو حتى البناء، وهذه المياه الجوفية قد تكون عذبة رقراقة أو تكون مياه جوفية حارة ساخنة مثل مياه الحامة (حامة قابس) التي يستفاد منها في الاستشفاء، وكذلك واحة شاشو التي تستخدم فيها العيون والآبار الجوفية في الزراعة، وعندما يحدث فيضان لأحد الأودية، فإنه يستفاد من مياهه في ري البساتين ويذهب الباقي إلى البحر، ولاتقاء شرور الفيضان؛ يقوم الفلاحون بإنشاء سدود ترابية للاستفادة من المياه دون الغرق، وتلك السدود قديمة عرفها الرومان في قابس، وهي عبارة عن حفر طولية أو أخاديد بنسب متتابعة لكي تحتجز المياه الفيضية وتمنعها من الجريان الشديد، كما تفتح أيضاً في حالة حدوث المطر الشديد، ولا ننسى عرب الفتح الإسلامي لأفريقية الذين عملوا في تنظيم الزراعة والري وحفر الآبار وتحسين تلك السدود وتدعيمها وبخاصة القديمة بحيث لا يتجاوز ارتفاعها نصف متر، وذلك تبعاً لدرجة انحدار الأرض[٢].

ومن أهم فوائدها، إلى جانب تقليل الجريان السطحي للمياه، ترسب طبقة الغرين أو الطمي أمامها مما يؤدي إلى زيادة مساحة المزروعات، فهي ضرورية؛ إذ إنها تزيد من خصوبة التربة في بعض المواضع الصحراوية، لذلك تزيد مساحة الرقعة الزراعية إلى جانب فائدة أخرى كبيرة؛ إذ تنمو

---

[١] **الفجارات** : جمع فجارة وهى منشآت تقوم الدولة بانشائها تتجمع فيها المياه لاستعمالها وقت الحاجة انظر: روبار برنشفيك: تاريخ إفريقية، ج٢، ص٢١٩–٢٢٠.

[٢] دحروج: مدينة قابس ، ص١٢٠ .

الأعشاب حولها بكثرة مما يشجع على الري وتربية الحيوانات[١]، ويشير ابن خلدون إلى طريقة استنباط المياه الجارية في البلاد الصحراوية، فيذكر كيفية حفر البئر عن طريق حفر " حفرة عميقة بعيدة المهوى وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة، فتتحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يرق جرمها، ثم تصعد الفعلة ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقتها الرقيقة على الماء، فينبعث صاعدًا، فيعم البئر ثم يجري على وجه الأرض واديًا "[٢]. وكل ذلك كان يتم يدويًّا وبأدوات بسيطة، مما يدلل على الجهود التي كان يبذلها الإنسان المغربي ؛ حتى ينجز حفر البئر، إلا إن عمق الحفر في البئر حتى الوصول إلى الماء يختلف بحسب طبيعة الأرض والمناخ.

– طرق استنباط المياه (النواعير[٣] والسواني و الخطارات[٤]) :

إن النواعير والسواني والخطارات كلها عبارة عن دواليب لرفع الماء، وقد وردت في كتب النوازل بكثره؛ مما يشير لحضورها في الحياة العامة في إفريقية.[٥] ومما لا شك فيه أن كثرة

---

(١) دحروج: مدينة قابس، ص ص١٢٠– ١٢١.

(٢) ابن خلدون، عبدالرحمن: تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر– بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، ج٧، ص ص٧٧–٧٨.

(٣) **النواعير**: مفردها الناعور، وهو دولاب ذو دلاء أو نحوها يدور بدفع الماء أو جر الماشية فيخرج الماء من البئر أو النهر إلى الحقل. انظر: مصطفى، إبراهيم، وآخرون: المعجم الوسيط، ٩٣٤/٢، قال الجوهري: يستقى بها، يديرها الماء، ولها صوت. الجوهري، إسماعيل بن حماد: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧م، ج٣، ص٣٩٦.

(٤) **الخطارة:** هي صنف من الدواليب علق بالتحريك، وآخره قاف، وهو لجميع آلة الاستسقاء بالبكرة على الأبيار من الخطاف والمحور والبكرة والنعامتين وحبالها كله يقال له علق، بنحمادة، سعيد: الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين ٧ و٨هـ/ ١٣ و١٤م – إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات، دار الطليعة– بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، ص٥٩؛ وقد وصفها برنشفيك بالعجلات الرافعة، انظر: تاريخ إفريقية، ج٢،ص٢١٩.

(٥) الونشريسي: المعيار المعرب: ج٨، ص ص٣٩٢–٣٩٣.

الأدوات والوسائل المستحدثة لمعالجة المياه والتعامل معها هي إحدى علامات التقدم التقني، وأبرز معالم الحضارة، وقد تحدث ابن خلدون حول هذا الأمر وذكر: " أن كمال الصنائع إنما هو بكمال الحضارة وكثرتها بكثرة الطالب لها، فلذلك عندما تكون الدولة بدوية في أول أمرها تفتقر في أمر البناء إلى غير قطرها، وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشياء من الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن وإجراء المياه بأخذ الارتفاع وأمثال ذلك فيحتاج إلى البصر بشيء من مسائله، وكذلك في جر الأثقال بالهندام، فإن الأجرام العظيمة إذا شيدت بالحجارة الكبيرة يعجز قدر الفعلة عن رقمها إلى مكانها من الحائط، فيتحيل لذلك بمضاعفة قوة الحبل بإدخاله في المعالق من أثقاب مقدرة على نسب هندسية تصير الثقيل عند معاناة الرفع خفيفاً، فيتم المراد من ذلك بغير كلفة، وهذا إنما يتم بأصول هندسية معروفة متداولة بين البشر" [١].

كما أشار التجاني في رحلته إلى ظاهرة رفع الماء عن طريق السواني، وذلك عندما وصل إلى واد يعرف بوادي الزركين، حيث رأى هنالك سواني لبعض المرابطين تسقي من آبار عذبة هنالك[٢]. وتحدث التجاني أيضًا عن استعمال السواني في موضع يقال له: تليل، وهو حصن في رأس تل مشرف على البحر، وتحف بالقصر في سند التل دور كثيرة معمورة، وما تحت التل سواني ومزارع، وليس هناك شجرة واحدة، وإنما معتمدهم في سكناهم بذلك القصر على ما يزرعونه بتلك السواني، وبها آبار معينة إلا إن ماءها شريب، وليس العذب منها إلا ما بين التل والبحر [٣].

---

[١] ابن خلدون: المقدمه، ج١، ص٥١٣ .

[٢] التجاني: رحلة التجاني: ص٣٢٠.

[٣] التجاني: نفسه، ص٢١١.

تعد السواقي والجداول والخطارات من التقنيات المهمة في إفريقية، كما إن اتجاه مجاريها ومقدار صبها يكشفان عن التداخل بين ملكيتها والأراضي التي تمر من خلالها؛ لأن معظم السواقي والجداول تعبر أراضي في ملك الغير، وما يفرزه ذلك من تداعيات تتعلق باستحقاق المجرى، ورقبة الساقية والنباتات التي تنمو على ضفاف الجداول، وحصص السقي والإصلاح والكنس، وتتفرع الجداول والسواقي عادة إما من المصدر المائي الواحد كالأودية، وإما من الخزانات والصهاريج المعدة لتجميع المياه وتوزيعها بالتساوي بين المستفيدين[١] .

– قوانين السقاية وتوزيع المياه :

يتبين من الواقع الاجتماعي المتعلق بالماء في بلاد إفريقية أن هناك قوانين تتعلق بالماء والسقاية مستمدة من الشريعة الإسلامية ومن الأعراف الاجتماعية، ومن خلال تلك القوانين تم تقسيم المياه على الأراضي والبساتين، وتم فض النزاعات الناشئة عليها وبسببها، وقد أشار الونشريسي إلى كثير من النزاعات التي حدثت حول المياه وكيفية توزيعها وطرق حل تلك النزاعات .[٢]

وظيفة السقاء في مجتمع إفريقية : لم أقف على أي عبارة تشير إلى وظيفة السقاء في المجتمع الحفصي في رحلة التجاني، رغم الدور المهم الذي كان للسقائين في تزويد المدن والبيوت بالماء في بلاد المغرب الإسلامي، فقد كان يتم نقل الماء على ظهور الدواب، والسقاء هو من يتعاطى نقل الماء وقت انقطاع الماء عن الدور بقربة جلدية [٣]، وذكر ابن بطوطة أن من عادة السقّائين أنهم ينزلون على جوانب العين ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمال ويملأون الرّوايا والقرب[٤].

---

[١] بنحمادة: الماء والإنسان في الأندلس، ص٥٦–٥٧.

[٢] الونشريسي: المعيار المعرب، ج٨، ص٢٩، ٣٢، ٤٣، ٤٤، ٣٩٣، ٣٩٨، ٣٩٩.

(٣) معجم المهن القديمة والحديثة حتى أبواب القرن الحادي والعشرين، (د.ن)، (د.ت)، ص١٢

(٤) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار، ج١، ص٣٤٧.

وأشار البكري إلى وجود ظاهرة السقائين في المجتمع التونسي، حين وصف مدينة تونس وذكر أنها تقع في سفح جبل يعرف بجبل أمّ عمرو، ويدور بمدينتها خندق حصين، ولها خمسة أبواب: باب الجزيرة قبلي ينسب إلى جزيرة شريك ويخرج منه إلى القيروان، ويقابله الجبل المعروف بجبل التوبة في أعلاه قصر مبنيّ مشرف على البحر، وبشرقي هذا القصر غار منحني الباب يسمّى المعشوق، وبالغربي منه عين ماء، وبغربي هذا الجبل جبل يعرف بجبل الصيادة فيه قرى كثيرة الزيتون والثمار والمزارع، وفي هذا الجبل سبعة مواجل للماء أقباء على غرار واحد، وبغربي هذا الجبل أيضًا أشراف ومزارع متّصلة بموضع يعرف بالملعب قد غرس بجميع الثمار وأصناف الرياحين، وبشرقي مدينة تونس باب قرطاجنة دونه داخل الخندق بساتين كثيرة وآبار بسوان تعرف سواني المرج، وباب السقائين جوفي نسب إلى السقائين؛ لأنّ بئرًا تعرف ببئر أبي القفار تقابله، وهي بئر كبيرة عزيزة عذبة المائة نميرة[١].

الخاتمة

- تعد كتب الرحلات مصدرًا مهمًّا من مصادر التاريخ الإسلامي.
- تعد رحلة التجاني مصدرًا مهمًّا لتاريخ المغرب الأدنى في أوائل القرن الثامن الهجري .
- اتضح من الدراسة مدى معرفة التجاني بموارد المياه في مدن إفريقية وقراها .
- تنوعت مصادر المياه في إفريقية كما ورد في رحلة التجاني .
- تعطي الرحلة صورة مهمة عن موارد المياه وكفية الاستفادة منها .
- عرضت الرحلة لبعض موارد المياه المستحدثة .
- اتضح من الدراسة مدى العلاقة بين المدينة والماء، الذي شكل عبر التاريخ مركز الاستقرار البشري ؛ مما يثير كثير من التساؤلات حول نشأة المدن واندثارها .
- تفرد التجاني بمعلومات في غاية الأهمية عن الآبار والعيون في مدن المغرب الأدنى .

---

[١] البكري: المسالك والممالك: ج٢، ص٦٩٧.

قائمة المصادر والمراجع :

أولاً : المصادر :

- **الإدريسي، محمد بن محمد** (ت ٥٦٠هـ): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- **ابن بطوطة، محمد بن عبدالله** (ت ٧٧٩هـ): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ.
- **البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي** (ت ٤٨٧هـ): المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م.
- **التجاني، أبو محمد عبدالله بن محمد** (ت بعد ٧١٠هـ): رحلة التجاني، تقديم: حسن حسني عبدالوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، الطبعة الثانية، ١٩٨١م.
- **التنبكتي، أحمد بابا** (ت ١٠٣٦هـ): نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم: الدكتور عبدالحميد عبدالله الهرامة، وضع هوامشه وفهارسه: طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية – طرابلس (ليبيا)، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.
- **الجوهري، إسماعيل بن حماد** (ت ٣٩٣هـ): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧م.
- **الحموي، ياقوت** (ت ٦٢٦هـ): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.
- **ابن حوقل، محمد البغدادي الموصلي** (٣٦٧هـ): صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت – **ابن خلدون، عبدالرحمن** (ت ٨٠٨هـ): تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر– بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.

- **الزبيدي، محمد بن محمد** (ت ١٢٠٥هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية(د.ت).
- **الزركشي، أبي عبدالله محمد بن إبراهيم**: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق وتعليق محمد ماضور، تونس ، ط٢.
- ابن الشماع، أبو عبدالله محمد بن أحمد: الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم، الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤م.
- **ابن فارس، أحمد القزويني** (ت ٣٩٥هـ): مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م.
- **القزويني، زكريا بن محمد** (ت ٦٨٢هـ): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت ، د.ت.
- **القلقشندي، أبي العباس أحمد بن علي (٨٢١هـ)**: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، د.ت
- **ليون الإفريقي، الحسن بن محمد الوزان الفاسي** (ت ٩٥٧هـ): وصف أفريقيا، ترجمه عن الفرنسية: الدكتور محمد حجي والدكتور محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.
- **المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري** (ت ٣٨٠هـ): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩١م.
- **المقري التلمساني، شهاب الدين أحمد بن محمد** (المتوفى: ١٠٤١هـ): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.

- **ابن منظور، محمد بن مكرم** (٧١١هـ): لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.
- **الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى** (ت ٩١٤هـ): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل أفريقية والأندلس والمغرب، خرجه: جماعة من الفقهاء بإشراف/ الدكتور محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، ١٩٨١م.

– ثانياً: المراجع :

- **سراج أحمد:** حول استمرار أحد مظاهر الديانات المائية القديمة بمغرب العصر الوسيط، ضمن كتاب (الماء في تاريخ المغرب) منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم (١١)، مطبعة المعارف الجديدة–الرباط، ١٩٩٩م.
- **سعيد بنحمادة :** الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين ٧ و٨هـ/ ١٣ و١٤م – إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
- **حسن حسني عبدالوهاب :** خلاصة تاريخ تونس، دار الجنوب للنشر، تونس ٢٠٠١م
- **الجمل، شوقي عطا الله، وإبراهيم، عبدالله عبدالرزاق:** مشاكل المياه في أفريقيا، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ٢٠١٣م.
- **الزركلي، خير الدين:** الأعلام. دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشر، ٢٠٠٢م.
- **العرجاوي، كريم، وآخرون:** من المنشآت المائية بفاس المزينية، نسخة إلكترونية بصيغة PDF.
- **علوي، محمد لمراني:** قضايا الماء في بلاد المغرب الأقصى من خلال كتب النوازل الفقهية (المعيار للونشريسي كنموذج): مدرج في كتاب (الماء في تاريخ المغرب)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم (١١)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٩م.

- **عليوش، وسيملة:** الثروة المائية في ريف المغرب الأوسط: خريطتها، منشآتها، استغلالها– من القرن ١هـ إلى نهاية القرن ٦هـ). رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم التاريخ بكلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية – جامعة قسنطينة (الجزائر)، ٢٠١٣م.
- **عز الدين موسى:** النشاط الاقتصادي في المغرب خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣م.
- **عمر رضا كحالة:** معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧م.
- **عوض الله، محمد فتحي:** الماء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩م.
- **كمال السيد أبومصطفي:** جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي، الإسكندرية، ١٩٩٦م .
- **محمد النيفر:** عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ١٩٩٦م .
- محمد المرزوقي: قابس جنة الدنيا – غابتها، خليجها، مدينتها، سكانها، تاريخها، رجالها، مكتبة الخانجي – مصر، ومكتبة المتنبي– بغداد، ١٩٦٢م .
- **مزيان، أحمد:** استغلال الماء في الواحات – نموذج فجيج (فكيك)، مدرج في كتاب (الماء في تاريخ المغرب)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم (١١)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٩م.
- **مصطفى، إبراهيم، وآخرون:** المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، دار الدعوة، (د.ت).
- Mas.Latre , Relations Des Chretens , Des Chiretiens Avec les Arabes De l'a Frique Ptentrionale , Paris , 1866 . se